الباب الثاني

مواقع الاسلام الحاسمة

الفصل الثالث

الحرب

عدة الحرب: لم تكن الحصون منتشرة في الجزيرة العربية إلا في بعض المدن كالطائف ومدن اليمن وحول مساكن اليهود وقراهم:

﴿ . . وظنوا انهم مانعتهم حصونهم من الله . . لايقاتلونكم جميعاً إلا في قرى محصنة أو من وراء جُدُر . . ﴾

(الحشر ٢ و ١٤)

والعرب بشطريهم، المدر والوبر، كانوا كما سبق وذكرنا يمارسون التجارة ونقل البضائع وتربية المواشي بانتجاع الكلأ هنا وهناك عبر الاراضي الوعرة والصحارى، فكانوا لذلك يفضلون الاسلحة الخفيفة الملائمة لاحوالهم المعاشية والكافية لاغراضهم الدفاعية والهجومية في الساحات المكشوفة: في الغارات العشائرية، بعضهم على بعض، في المنازل المكشوفة أوعلى طرق القوافل أوماشابه. وكانت جزيرتهم بمسالكها الوعرة في نجوة من غارات الجيوش الثقيلة كالجيوش الفارسية والرومية. وقد رأينا كيف هلك في مفاوزها جيش اغسطس الذي ارسله هذا الامبراطور الى اليمن. وكان الاحباش يصلون بقواتهم الى اليمن بطريق البحر. اما الفرس فكانوا يسلكون بقواتهم الى اليمن طرق القوافل من العراق الى سواحل الخليج العربي ثم طرق التجارة عبر نجد التي مرت معنا اعلاه في الباب الاول من هذا البحث، وكان بعض العرب يساعدهم على ذلك*. ولا يعني هذا ان العرب ما

* نقرأ في الأغاني عن ذي قار ان جند كسرى كانوا بمعظمهم من مرتزقة العرب. ويقول ابو الفرج ان كسرى قال لقائد حملته: « . . اذا فرغتم من عدوكم فسيروا . . . الى اليمن. وكانت العرب تخفرهم وتجيرهم » ج ٢٠ ص ١٣٤.

كانـوا يمارسـون قتـال الهجـوم على المدن والمواقع المحصنة. فالرسول صلى الله عليه وسلم استولى على مواقع محصنة لليهود في خيبر ومنازل بني قينقاع والنضير وقريظة. وحاصر الطائف وضرب اسوارها بالمنجنيق.

اولا : ان الانسـان بمعنـويـاتـه وتـدريبه هو العدة الاولى للحرب. فحروب الجـاهليـة المستـديمة التي كانت تدور بين مختلف القبائل العربية قد اغنت معرفة هذا القـوم بتجـارب ثمينـة في هذا المجـال، وجعلت من المجتمـع العـربي مدرسـة هائلة الاتساع تناقش فيها مختلف مسائل الحرب والصراع. وقد تخرج من هذه المدرسة كل اولئـك الجنـود الابطـال والقـادة العظـام الـذين اداروا بمهارة لا مثيل لها تلك المعارك الكبرى التي غيرت وجه العالم الى الافضل والاحسن. واتى الاسلام فتمم تلك المعرفة ببناء انفس ترى الشهادة في سبيل اعلاء كلمة الله مكسباً لايعادله شيء في الحياة الدنيا. فعندما قال عليه السلام يحرض المسلمين في بدر مثلا :

« والـذي نفس محمـد بيده لايقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة »

قال عمـير بن الحـمام (وكـانت بيده تمرات يأكلها) : «بخ بخ ليس مابيني وبين ان أدخـل الجنـة إلا أن يقتلني هؤلاء. . . ». ثم قذف التمـرات من يده وأخـذ سيفه وقـاتـل حتى استشهـد*. وكـان خالـد بن الوليد يرسل الى حكام الفرس ومرازبتهم عنـدمـا كان يقـود جهـاد المسلمـين في العـراق كتبا ينهيها بالعبارة التالية : « . . فقد جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة، أوكما تحبون شرب الخمر ». وهذه الخنساء توصي ابناءها عشية مسيرتهم الى العراق في جيش القادسية : « يابني انكم اسلمتم طائعين وهاجرتم مختارين، وتعلمون ما أعد الله تعالى للمؤمنين من الثواب في حرب الكـافـرين. واعلمـوا ان الـدار الآخـرة خير من الـدار الفانية. يقول الله عزوجل : ﴿يـاأيهـا الـذين آمنـوا اصـبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾. فاذا رأيتم الحـرب قد شمـرت عن ساقهـا فتيمموا وطيسها وجالدوا رئيسها تظفروا بالغنى والكرامة في دار الخلد والمقامة ». والمقصود برئيس الحرب حماها. وعندما اتاها خبر

* نور اليقين للخضري ص ١٣١

استشهـاد اولادهـا جميعـاً قالت قولتهـا الشهـيرة : « الحمد لله الذي شرفني بقتلهم ، وأرجو من ربي ان يجمعني بهم في مستقر رحمته » . *

ثانيـاً ـ عنـدمـا نتتبـع الخط العام لتقدم العرب في اقامة دار الاسلام نجد هذا الخـط لايبتعـد كثـيراً عن خط الصحـارى العـالمية الذاهب من الصحراء الكبر ى في افريقيا الى صحراء غوبي في شرق آسيا . والحملات العربية نحو الشمال ، نحو القوقاز وقـزوين مثـلا ، أو نحو فرنسا عبر اسبانيا ، كان بالامكان تشبيهها بتفرعات عن الخط العـام الآنف الـذكـر . والتنقل عبر الصحراء يطرح مشاكل وصعوبات تشبه الى حد بعيد مايصادفه الانسان الذي يركب متن البحار . ففي الصحراء مسالك على المسافر معرفتها ، ومفاوز ومهالك يجب تجنبها . كما ان التمون بالماء والغذاء فيها يطرح مسألة صعبـة يتطلب حلهـا درايـة وتجـربـة . والسـير فيهـا لايحمـد في كل آن وانـما له اوقاته المنـاسبـة . وهي تبتلع الفئـة الصغـيرة المعزولة فتهلك هذه في صعوباتها . ولا تتحمل مواردهـا الشحيحـة الجحافل الثقيلة طوال سفر بعيد فيهلكها ثقلها . وقد وجد العرب حلولا لكل هذه الصعاب بالتجربة الطويلة والممارسات اليومية . فهم ابناء الصحراء ، واحـاتهم جزر فيهـا ومـدنهم موانىء عليهـا . فكـانوا يعرفون مشاكلها ويمتلكون كل الـوسـائل للتغلب على صعابها ، والوسيلة الاولى بين هذه الوسائل هو انسانهم الذي نشأ فيهـا وجبـل على مواجهـة قسـوتها . وهذا ما جعلهم لا « يغتر بون » كثيراً عندما تابعـوا خط تقـدمهم الصحـرواي الآنف الـذكـر لاقـامة دار الاسلام . وكان من اهم وسائلهم في تقدمهم المذكور :

ـ الجمـل ، سفينـة الصحـراء والـوسيلة التي لاتضـاهيهـا وسيلة في تلك الأيام لتنظيم القوافل الكبيرة والخفيفة الحركة في ذات الوقت ، القوافل التي يمكن ان تكون للتجارة والسفر عبر الصحارى أو ان تكون جيوشاً أو امدادا لجيوش بما هي بحاجة اليه من عدة ومؤونة . والجمل حيوان صبور على الجوع والعطش ، قادر على تحمل مشاق المسـيرات الطـويلة ، قوى على حمل الاثقال ، جلود على تحمل قيظ ظهيرة الصحراء وقـر ليلهـا ، وهـو « يطفو » بخفافة الاربعة على رمالها كما تطفو السفينة بغاطسها على الماء . وهو عند الضرورة يشكل بلحمه غذاء ممتازاً وبمعده الاربعة خزاناً متنقلاً للماء .

---

* * الخنساء بقلم الدكتورة بنت الشاطىء في سلسلة نوابغ الفكر العربي ص ٤٩ و ٥٠

وكان العرب يستعملونه بالعشرات وبالمئات في كل قافلة من قوافلهم، فيحصلون بهذا على قدرة كبيرة للتنقل السريع والحركة في كل الاتجاهات في صحاريهم، مما جعلهم بكل هذا اصحاب السيادة المطلقة على الصحارى في ذلك العصر.

﴿ والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون. ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون وتحمل اثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الأنفس ان ربكم لرؤوف رحيم ﴾

(النحل من ٥-٧)

الانعام تعني الأبل والبقر والغنم. وتحمل اثقالكم يعني الأبل تحمل اثقالكم*.

وقد أخذ الجمل مكاناً هاماً من اهتمام العرب فنجد مثلاً ان وصف الناقة اخذ شطراً هاماً من معلقة طرفة بن العبد، كما لم تخل المعلقات الأخرى من ذكرها. وركبوه ايضاً لخوض القتال، فقد ذكر متمم بن نويرة اخاه مالكا فقال : « كان يخرج على الجمل الثفال، معتقل الرمح الخطل. . ». والجمل الثفال هو المتئد في مشيته، والرمح الخطل هو المفرط في الطول الذي يهتز بيد صاحبه لطوله.

ـ الخيل، وكانت درع القافلة وعينها. فالحصان وسيلة نقل سريعة لاستطلاع الطرق امام القوافل والجيوش حتى عصور متأخرة. وكان وسيلة حاسمة لكل انواع الانقضاض والاختراق عند استعماله بكتل كبيرة : لقد كان دبابة وطائرة الجيوش قبل عصر الطائرة والدبابة. ولننظر الى الصورة الرائعة التي تصورها لنا سورة العاديات لانقضاض كتل الخيالة على العدو، واختراقها صفوفه :

﴿ والعاديات ضبحا. فالموريات قدحا. فالمغيرات صبحا. فاثرن به نقعا. فوسطن به جمعا ﴾

(العاديات من ١-٥)

وذكر الرسول ﷺ الخيل فقال :

« بطونها كنز وظهورها حرز »

« الخيل معقود في نواصيها الخير الى يوم القيامة »

وكان ﷺ يحضر حلبات سباق الخيل. وفي مرة : « أجرى الخيل وسابق بينها

---

* تفسير الجلالين.

فجاء فرس له ادهم سابقا فجثا عليه السلام على ركبتيه وقال : ما هو الا البحر. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « كذب الحطيئة حيث يقول : وان جياد الخيل لاتستنفزنا »*. وكانت العرب لاتعود انفسها اذا ارادت الركوب ان تضع ارجلها في الرُكُبِ، وانما كانت تنزو نزوا. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : لاتخور قوى ما كان صاحبها ينزو وينزع. أى لاتنتكث قوته مادام ينزع في القوس وينزو في السرج من غير ان يستعين بركاب»*والحصان العربي له شهرته المعروفة، كما للعربي شهرته بالفروسية.

والخلاصة كانت الجمال والخيل توفر للعربي قدرة ومرونة فائقتين في حركته في الصحارى. وفي كثير من الاحيان كانت انجازات العرب في مجال اجتياز المسالك الصحراوية المطيلة الوعرة تبدو معجزة بنظر غيرهم من الاقوام التي ما كانت تملك من وسائل وتجارب في هذا المجال، فالاجتياز الشهير الذي انجزه مثلا خالد بن الوليد عبر الصحراء الشامية بقواته من العراق الى الشام، في فترة زمنية قصيرة، من طريق صعب لا ماء فيه، بدا للروم امرا معجزا وفاجأهم مفاجأة تامة.

ثالثاً- قلنا ان ما كان العرب يفضلون استعماله من الاسلحة هو الذي يلائم الحركة السريعة ولا يشكل ثقلا في التنقل : كالسيوف والرماح والقسي والنبال والحراب والعصي على انواعها والخناجر وما شابه. وهذه الاسلحة هي على العموم للالتحام الا القسي ونبالها فهي للرمي عن بعد. وكان العرب يستعملون للدفاع الترس والدروع الخفيفة (اللامات) والمغافر وهي من زرد يحمي الرأس. وكانت تلك الاسلحة الخفيفة لاتفارق يدهم على مايفهم من اخبارهم. يقول أبو عثمان الجاحظ في البيان والتبيين : « كانت العرب تخطب بالمخاصر، وتعتمد على الأرض بالقسي، وتشير بالعصي والقنا، حتى كانت المخاصر لاتفارق ايدي الملوك في مجالسها ولذلك قال الشاعر:

في كفه خيزران ريحها عبق بكف اروع في عرنينه شمم

وفي خد وجه الأرض باطراف القسي قال لبيد :

---

* انظر البيان والتبيين ج٢ ص ٣١ و ٣٧

** المرجع السابق ج ٣ ص ١٢

يشين صحاح البيد كل عشية بعوج السراء عند باب محجب

عوج جمع عوجاء، وهي هاهنا القوس، والسراء شجر يعمل منه القوس. . والخيزران كان يجلب من الهند وهو يصلح مع السراء المذكور بكلمة الجاحظ ومع شجر الشوحط والمران لصنع القسي* والنبال وعيدان الرماح وذلك بحسب حجمها. ومن المشهور عن الصحابي سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه انه كان في الجاهلية يصنع القسي فكان من امهر الرماة. اذ كان عليه تجربة ما كان يصنعه منها. وفي موقعة أحد وقف بقرب النبي ﷺ يذود عنه المشركين برميه المحكم، وكان عليه السلام يقول له :

« ارم سعد فداك ابي وامي ». وكانت الرماية، كركوب الخيل وكما هي اليوم، رياضة محببة عند العرب. وقد رويت عن مهاراتهم في هذا المجال الحكايات الصحيحة والخيالية الا انها كلها تنبىء عن اهتمامهم الشديد بهذه الرياضة وبقسيها الجيدة. ومن هذه الحكايات تلك التي تروي قصة الكسعي الذي حطم قوسه التي تعب كثيراً في اتقان صنعها، وذلك لأنه ظن بأنه لم يصب حمرا وحشية رماها بها في الظلمة. وفي الصباح عند ما مر بمكانها فوجدها جميعها مقتولة بسهامه اصابه الندم الشديد فقال: *

ندمت ندامة لو ان نفسي تطاوعني اذن لقتلت نفسي
تبين لي سفاه الرأي مني لعمر الله حين كسرت قوسي
وقد كانت بمنزلة المفدى لدى وعند صبياني وعرسي
فلم املك غداة رأيت حولي حمير الوحش ان ضرجت خمسي

وقد ذهبت ندامة هذا الرجل مثلاً. وكان الخليفة عمر يوصي المسلمين بتعليم اولادهم الرماية وركوب الخيل. ثم ان المفاجأة الشديدة التي فوجىء بها المسلمون في غزوة حنين كانت من نبل العدو : « فان مقدمة المسلمين توجهت جهة العدو فخرج لهم كمين كان مستترا في شعاب الوادي ومضايقه وقابلهم بنبل كأنه الجراد المنتشر. . »*

وكان العرب يتخذون للقناة زجا وسنانا، الأمر الذي يدل على انهم كانوا

---

* الموسوعة بريتانيكا ١٩٦٥ مجلد ٤ ص ٢٩ و ٣٠

* المنجد في فصل فرائد الادب، حرف النون.

* * نور اليقين للخضري ص ٢٥٥.

يعتمدون فقط على قوة يدهم في الطعن بها، لأن الزج (وهو حديد مدبب الطرف) يمنع من ركز الرمح على فخذ الفارس ليستفيد من الطاقة الحركية لحصانه عند طعن الخصم. « وللرماح طبقات فمنها النيزك ومنها المربوع ومنها المخموس ومنها التام الخطل وهو الذي يضطرب في يد صاحبه لافراط طوله . . . والنيزك اقصر الرماح، واذا كان الفارس الهارب يفوت الفارس الطالب زجه بالنيزك، وربما هاب مخالطته فيستعمل الزج دون الطعن». *** والضرب بالرمح على أربعة انواع :

النوع الأول : الدرة، وهو الرمي والقذف بالرمح

النوع الثاني : النهز، وهو الدفع

النوع الثالث : الخلس، وهو المخالسة بالطعن

النوع الرابع : الزج، وهو القذف بالرمح القصير (بالنيزك)

وتقول العرب: «لقيته سقابا ونقابا، أي مواجهة احدهما بعالية الرمح والآخر بسافلته»*

وكان للعرب السيوف الطويلة والقصيرة، فالاولى منها للخيالة على العموم، والأخيرة الخفيفة للمشاة، بدلالة قول الشاعر حميد بن ثور الهلالي وقول غيره من الشعراء :

ووصل الخطا بالسيف والسيف بالخطا

اذا ظن ان السيف ذو السيف قاصر

وكانت السيوف تستورد من الهند، كما كانت تصنع في سورية واليمن. وللسيوف الدمشقية وفولاذها شهرة عالمية في تلك العصور.

وسرعان ماتم العرب عدتهم العسكرية وطوروها اثناء تقدمهم في بناء دار الأسلام، وبعد بناء هذه الدار. فمنذ الايام الاولى لخروجهم من جزيرتهم للجهاد، صادفوا في الاقطار التي حرروها من نير العبودية جيوشا مجهزة بأفضل التجهيزات ومدنا حصينة. واستخدموا لمواجهتها كل ما وفره ذلك العصر من عدة الحرب والحصار. ولكن ما ميز العرب في تقدمهم لبناء دار الاسلام هو كما اشرنا اليه اعلاه كونهم كانوا ابناء الصحراء وسادتها، بكل ماأعطتهم هذه الميزة من حيوية، وخفة في

*** البيان والتبيين ج٣ ص ١٣

* المرجع السابق ص ١٤

الحركة، وقدرة فائقة على التكيف بسرعة مع اصعب الظروف واكثر الاراضي وعورة، وشدة في التعرض، وسرعة مذهلة في التقدم في اعماق اراضي العدو.

نظام القتال : كانت تشكيلة القتال عند عرب الجاهلية تشبه على العموم مالدى غيرهم من الاقوام والامم من تشكيلات لهذا الغرض، مع ملاءمتها بطبيعة الحال لظروفهم واغراضهم في القتال. فكانوا مثلاً يصطفون للقتال في ميمنة وميسرة وقلب. وعند التقدم أو التراجع كانت لهم الطلائع والمؤخرات. وكانوا يستطلعون الارض قبل خوض المعركة بالنفائض. وقد كتّبوا قواهم بكراديس. ولكنهم كانوا يفضلون حشد كل جماعة يتقارب افاردها بالدم، كاهل حي أو فخذ أو عشيرة، في مكان واحد من تشكيلة القتال، وذلك لتصعيد حميتهم في الدفاع بعضهم عن بعض. وكانوا لهذا السبب، وبسبب عدم وجود جيوش ممتهنة عندهم ايضا (اذ كانوا يأتون الى الحرب طوعا تجرهم اليها رابطة العشيرة او المدينة) نقول لهذه الاسباب كانوا يقاتلون متساندين. فكثيرا ما كان يصدف انسحاب فئة أو فخذ أو عشيرة من القتال قبل نشوبه أو في اثنائه، ومثال ذلك انسحاب المنافقين من جيش المسلمين الذاهب لخوض معركة أحد، ومثال آخر انسحاب بني قيس بن ثعلبة من صفوف المقاتلين العرب في ذي قار قبل نشوب المعركة. اننا نقرأ في الأغاني للاصفهاني ان ربيعة بن غزالة قال لبني شيبان قبل خوض القتال في المعركة المذكورة : «لاتستهدفوا لهذه المعركة الاعاجم فتهلكوا بنشابها ولكن تكردسوا كراديس الخ. .»* ونقرأ ايضا : «وكانت بنو عجل في الميمنة. . وكانت بنو شيبان في الميسرة. . وكانت افناء بكر بن وائل في القلب. .»* . ومن المعروف ان الجيوش العربية (احتفاظا منها بالشكل الذي ارسلت فيه بأمر الخليفة ابي بكر رضي الله عنه الى الشام عندما اجتمعت في اليرموك بقيت متساندة حتى مجيء خالد رضي الله عنه فوحدها وكتبها بكراديس وبقيادة واحدة.

كانت العادة عند القبائل ان تضع غير المقاتلين من الاولاد والنساء والشيوخ مع كل ما تملكه من قيم كالنقود والذهب والفضة والأقمشة والثياب والماشية الخ. . .

---

* ج ٢٠ ص ١٣٦ و ١٣٧

في المؤخرة، بينما تتقدم المقاتلة لمناجزة العدو. ولكن النبي ﷺ ما كان يسمح بحضور المعارك لغير المحاربين وذوي النفع في القتال كالنساء للعناية بالجرحى. فقد رد مثلا الصبيين رافع بن خديج وسمرة بن جندب من جيش احد، ثم أجازهما بعد رجاء، وعندما علم ان رافعا رام جيد وان جندبا يغلبه بالمصارعة. كما ان ابنته فاطمة عليها السلام كانت في شِعْبِ أُحُدٍ حيث قامت مع علي رضي الله عنه بغسل جراحه ﷺ وتضميدها.

سبق ان اشرنا ان جزيرة العرب كانت مدرسة هائلة الاتساع للكفاح بكل انواعه التي منها الحرب. فالعربي كان ينتمي الى هذه المدرسة منذ ولادته، وكان يرتقي فيها بالتجارب بتقدمه في السن وفي السلم الاجتماعي. ولننظر الى هذه الصورة التي يصورها لبيد في معلقته، وفيها نرى كيف كان يؤدي الفرد العربي واجبا من واجبات حماية الجماعة، وكانت تأديته هذه موضع فخر واعتزاز له :

ولقد حميت الحي تحمل شكتي فرط وشاحي اذ غدوت لجامها

فعلوت مرتقبا على ذي هبوة حرج الى اعلامهن قتامها

والشكة هي السلاح، والفرط :الفرس السريع الخفيف، والمرتقب المكان المرتفع الذي يقوم عليه الرقيب، والهبوة الغبرة، والاعلام الجبال والرايات، والقتام الغبار. وهو يريد ان يقول : لقد حميت قبيلتي وأنا على فرس اتوشح بلجامها بصعودي على جبل قريب من جبال الاعداء ومن راياتهم لأرقب تحركاتهم* ثم ان ادارة الوف الناس في القتال يتطلب نظاماً يخضع له هؤلاء الناس طوال القتال. لذلك كان رب العائلة قائداً لأفراد عائلته، وهو تحت قيادة زعيم الحي الذي يطيع زعيم الفخذ الخ.. وتنتهي الأمور الى رجل يقمع الخصم ويتجشم عظام الخصام*، كما وصفه لبيد في معلقته :

انا اذا التقت المجامع لم يزل منا لزاز عظيمة جشامها

والراية التي تشير الى مكان القائد في القتال كانت لتحقيق امر اساسي وهو ارتباط مختلف الجماعات في ساحة القتال بالقيادة العليا طوال تطور المعركة :

ـ لموافاة القيادة بمجريات القتال في مختلف انحاء ساحته.

---

* * شرح المعلقات للزوزني.

ـ لطلب التدخل والمساعدة هنا وهناك من ساحة المعركة.

ـ لحفظ نظام وتماسك الجيش اثناء القتال بصورة عامة.

لذلك كانت الراية هدفاً اساسياً للعدو، وكان اصحابها يستميتون بالدفاع عنها. ولدينا مثال على هذا الامر في استشهاد ثلاثة من القادة حملة الراية في معركة مؤته: زيد بن حارثة وجعفر بن ابي طالب وعبد الله بن رواحة رضي الله عنهم جميعاً ومن كان معهم.

وكان العرب يمارسون كل اساليب القتال المناسبة للوصول الى اهدافهم في الظروف التي تحيط بهم. وفي مسيرتهم العظيمة لبناء دار الاسلام واجهوا كل ما يمكن تصوره من ظروف في تلك العصور، وانتصروا على اعدائهم باستعمالهم ما يناسب من اساليب الصراع بكفاءة عالية. وكانوا في كل ذلك يطيعون ويستنيرون بالآيتين التاليتين:

﴿ واعدوا لهم أستطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ﴾

(الانفال ٦١)

﴿ ياأيها الذين آمنوا اذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الادبار. ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرفا لقتال أو متحيزا الى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير ﴾

(الانفال ١٥ و ١٦)

كان المسلمون في صدر الاسلام يلبون داعي الجهاد تماما كما كانوا يلبون داعي الصلاة، بدون اكراه، وانما بدافع من ايمانهم، فالجهاد عبادة، كما كانوا يفهمونه، لا يتم ايمانهم الا به. ومما رسخ حب الجهاد في صدور المسلمين الأزمة الشديدة التي وقع فيها بعض المؤمنين الذين تخلفوا عن مسيرته عليه السلام في غزوة تبوك (غزوة العسرة)، ثم الحملة الشديدة التي اتت بالقرآن الكريم على المتخلفين من المنافقين:

﴿وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى اذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لاملجأ من الله الا اليه ثم تاب عليهم ليتوبوا ان الله هو التواب الرحيم﴾

(التوبة ١١٨)

﴿ انما يستأذنك الذين لايؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون . ولو ارادوا الخروج لاعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين . لو خرجوا فيكم ما زادوكم الا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين ﴾

(التوبة من ٤٥ - ٤٧)

فالمسلم عند تخلفه عن الجهاد كان يجد نفسه (وما يزال اذا كان مؤمناً حقاً ويفهم دينه حق الفهم) في وضع المنافقين وتحت حكم الآيات السابقة، بالاضافة الى ماكان يتعرض له من عزلة ومعرة بين اهله وجماعته، الأمر الذي ما كان ليرضاه لنفسه. وقد سبق وقلنا ان العربي كان يقاتل بين اهله وجماعته في حيه، أي ان وحدته المقاتلة كانت تتشكل من الحي والفخذ والعشيرة. . . فعندما كان ينادي داعي الجهاد فان الاستجابة والتكتب بالوحدات المقاتلة كانا يتمان معاً وآنياً. ثم كانت أفواج المجاهدين تندفع بعد هذا من كل صوب نحو المركز، نحو المدينة المنورة عاصمة الخلافة. وهذا ماحدث تماماً عندما استنفر الخليفة عمر بن الخطاب العرب للسير الى العراق عشية معركة القادسية. فالتعبئة القائمة على الايمان والطاعة لغرض الجهاد كانت ميزة هائلة للعرب تفوقوا بها تفوقاً هائلاً على بقية الدول المعاصرة لهم في صدر الأسلام: كانت جيوش الجهاد، في سبيل اعلاء كلمة الله، تقوم بكل كتائبها وجحافلها عند أول نداء للجهاد. فاذا اضفنا الى هذا الميزات الأخرى للعرب في تلك الأزمان، اذا اضفنا مقدرتهم الكبيرة على التحرك بسرعة في اشد المسالك وعورة ومشقة، وصبرهم على أطول الطرق وأبعد الأهداف، اذا اضفنا ايمانهم على الأخص، اتضح لنا جيداً مصدر تلك القوة المذهلة التي تمتعوا بها تجاه اعدائهم، اعداء التقدم والانسان.

وعندما اتسعت دار الأسلام وتعقدت المجتمعات فيها، في العصور التي تلت العصر الراشدي، تطورت العسكرية العربية واخذت اشكالاً ملائمة لظروفها، ولحاجات السلطات الحاكمة. الا ان الانتماءات العشائرية كانت تحفظ في الأزمنة الأولى. فذكر الطبري في تاريخه الفقرة التالية الخاصة بمطلع العهد الأموي: « وقد

دعـا عدى اهـل البصـرة فبعث على كل خمس من أخماسها رجلا . فبعث على خمس الازدأ بن زياد العتكي وعلى خمس بني تميم محرز بن حمران السعدي وعلى خمس بكر بن وائـل عمـران بن عامـر . . . ودعا مالك بن الجارود فعقد له على عبد القيس ودعا عبد الاعلى بن عبد الله فعقد له على اهل العالية . . * »

وفي بدايـة الفتـح الأسـلامي كان العـرب يبنـون لجنـودهم المـدن كي يقيمـوا كالبصـرة مثـلاً التي بنـاها أبو موسى الأشعري والكوفة . وكانت هذه المدن للمعسكرات تسمى الامصـــار . وقسمت الامصـــار الى ارباع واخماس يقطن كل منهـا قبيلة من القبائل . وكان يطلق على المقاتلة في الامصار أسم أجناد . «وانتهج خلفاء بني أمية في بلاد الشـام نهجـاً جعلوا به كل مصـر من الامصـار في هذه البلاد لقبيلة معينة : فكان جنـد قنسـرين في غالبيتهم قيسيـة ، أما حمص فكانت غالباً يمانية وكانت كلب وجذام على دمشق . * * »

وظهـرت الـوحدات النظامية المأجورة الى جانب المتطوعين (المستجيبين لدعوة الجهـاد من العـرب والمسلمـين) في الثغور وفي المراكز الهامة من دار الأسلام او في المدن غير المستقـرة . وكـانت تطلق على الحـاميـات في تلك الأمـاكن اسم الـروابط للثغور والمسالح للاخرى (من اصحاب السلاح) وكانت تصرف رواتب اولئك المنضمين الى الوحدات النظامية من بيت المال . أما المتطوع فهو مسلم يذهب الى ثغر من الثغور أو ينضم الى جيش محارب على نفقتـه الخـاصـة وذلـك استجابة منه الى اوامر الدين في الجهاد وتعبدا .

ان دار الأسـلام اليـوم بأجمعهـا ، في كل شبر منها ، ثغر تجاه اعدائها ، لأنها تقع كلها تحت القهر الاستعماري . ومنها ماأخرج اهله من أرضه كفلسطين مثلاً والجولان والجنوب اللبناني . والعدو الاسرائيلي جاد في افراغ الاراضي العربية من حوله واستعباد اهـل ما لايفـرغه من الارض . فيكون على المسلمين ، لاسيما منهم الاغنياء اصحاب الثـروات الطبيعيـة ، مد يد العـون الى اولئك المرابطين المتشبثين بأراضيهم وبيوتهم ،

---

* الطبري . الطبعة الأوربية . القسم الثاني ١٣٨١ و ١٣٨٢ . وردت في مقال للدكتور فاروق عمر فوزي في المجلد الثامن من مجلة المورد ١٩٧٩

* * انظر مقال الدكتور فاروق عمر فوزي الآنف الذكر .

على الرغم من الاعتداءات الوحشية التي يرتكبها العدو الصهيوني ضدهم، فهذا من علامات الأيمان:

﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا باموالهم وانفسهم في سبيل الله اولئك هم الصادقون﴾

(الحجرات ١٥)

ولكن الثروات الطبيعية كالبترول ودولاراته مثلا هي شرعاً من مال الله وليست ملكاً لفئة من المسلمين دون الأخرى. ولا يرضى الأسلام بأن يصاب بسببها مسلمون ومواطنون في دار الأسلام، فيفقدون اوطانهم لانها تقع على طريقها، بينما «ينعم بجزء تافه منها مواطنون آخرون في دار الأسلام لقاء تسليم الجزء الأعظم منها الى العدو الغاصب... فلا بد اذن من ان توضع برمتها لاعداد اسباب القوة لامتنا، وان يكون للمرابطين المذكورين آنفا حق ونصيب فيها. ان اعطاء المستعمرين ثرواتنا دون مقابل حقيقي هو السبب الأول والأخير للتخلف الذي نحن فيه، والقهر الذي نعانيه. وكان الأجدر بنا ان نوظف هذه الثروات في تنمية قوانا، ليس فقط في اقطار قليلة من اقطار امتنا، وانما في كل اقطارها. ان الشعار الخادع القائل بوجوب «الأخذ بعين الاعتبار الظروف الموضوعية» لتحقيق وحدتنا (وحدتنا الاقتصادية على الأقل) ما هو في الواقع إلا «الأخذ بعين الاعتبار ظروف النهب الاستعماري الى ما لانهاية له من الزمن...»